مسرح الطفل بين التربوية والجمالية

د. عثمان المودن *

يعد مسرح الطفل من الوسائط التربوية التي تساهم مساهمة فعالة في تثقيف الطفل وتكوينه فكريّاً ونفسيّاً وخلقيّاً، كما أنه يساهم في بناء شخصيته ويسعى إلى تطوير وعيه وطريقة فهمه للحياة، ويقوي روح المعرفة لديه في حدود ما يتناسب مع نمو عقله وتفكيره في هذه المرحلة، كما أن له دوراً بارزاً في ترسيخ القيم الدينية والاجتماعية في قلوب الأطفال ووجدانهم؛ ولذلك فإن مسرح الطفل يشكل دعامة رئيسة في مواجهة التغيرات التي تواجه الأطفال في مسيرة نموهم وفي تكوين شخصياتهم.

ولمقاربة دور وأهمية مسرح الطفل، أصدرت الهيئة العامة المصرية لقصور الثقافة مع نهاية ٢٠١٨ ضمن سلسلة إصدارات خاصة كتاب "مسرح الطفل المعاصر بين التربوية والجمالية" للناقد والمسرحي محمد عبد المعطي، وهو كتاب يضم أربعة فصول موزعة على ١٥٧ صفحة من الحجم المتوسط، وهو استكمال لما بدأه الكاتب منذ سنوات خلت بخصوص هذا الحقل الفني؛ إيماناً منه "بقيمة وجدية هذا المسرح في تربية فلذات أكبادنا، وبوجوب تكوين طفلنا تكوينًا سويًا يواجه به تحديات العصر؛ وبالتالي لابد أن ندفع بهذا المسرح ليقوم بدوره الحضاري، فهو أعظم منجزات القرن العشرين إذ ورث كل علومه وفنونه، كما أصبح له ومنذ نشأته تاريخه الخاص به وتجاربه التي لم يعلن بها فقط عن نفسه، بل فرض بها إرادته ووجوده التربوي والتعليمي على المستوى العالمي، وأصبحت له منظماته التي ترعاه ومهرجاناته التي تدفعه إلى التطور، واكتشافاته التي أصبحت من أهم سمات التجريب فيه".

ومسرح الطفل كما أجمع الدارسون هو عمل فني مادته الأولى النص التأليفي الموجه للأطفال،

* باحث في علوم التربية والتكوين – المغرب.

والذي يناسب مراحل أعمارهم المتدرجة. ومن ثم ينتقل فوق خشبة المسرح إلى عرض تمثيلي درامي مبسط يقدمه الممثلون وفقاً لتوزيع الأدوار التي يلعبونها، تعضدهم العناصر المسرحية الفنية من ديكور، وإضاءة، وأزياء، وأصوات وغيرها، بالإضافة إلى رؤية مخرج العرض، وتناغم فريق الأداء التمثيلي مع عناصره الفنية.

ولمسرح الطفل ميزة وأفضلية على غيره من وسائط أدب الأطفال؛ وذلك لأنه يستطيع أن يقدم الغايات، والأهداف المتنوعة، والقيم السامية في أحضان جو من البهجة والسرور، بالإضافة إلى أن معظم المسرحيات تقوم على تقديم القيم والمبادئ في صورة مشخصة مجسدة، وبطريقة تتناسب مع عمر الطفل وتفكيره، مما يحرك مشاعره وعقله، ويغذيه فنيّاً وأدبيّاً ووجدانيّاً؛ وبالتالي المساهمة في تربيته وضبط ميولاته.

ومسرح الطفل لا يقتصر على المتعة فقط وإنما له أهداف أخرى يأتي في طليعتها الهدف التربوي التعليمي؛ فهو يمنح المادة العلمية التعليمية روحاً جديدة عند تقديمها للأطفال؛ وذلك عند إخراجها من صياغة القوالب الجامدة المباشرة، وتقديمها في شكل فني جمالي بعيداً عن التلقين، بالإضافة إلى أنه يمنح الفرصة للأطفال والطلاب للمشاركة والتواصل، بما يزيد من قدرتهم على التحصيل المعرفي، فهو إذن ييسر على الأطفال عملية الفهم والاستيعاب نظراً إلى ما يمتاز به من خاصية المزج بين المعلومة المسموعة والمتعة البصرية الجمالية؛ لذلك يرى الكاتب أن استخدام المسرح في التربية أصبح ضرورة ملحة؛ وذلك لما يتسم به من قدرة على غرس القيم التربوية في نفوس المشاهدين.

فالمسرح إذن في المجال التربوي يجعل المادة العلمية مستساغة سهلة الفهم والاستيعاب، كما أنه يحررها من القيود الجافة التي وضعت فيها، وبالتالي ما يتعلمه الطفل من معلومات ومعارف مقرونة بالمتعة خلال مشاهدته ومعايشته للعرض المسرحي يبقى أثره لمدة طويلة في نفسه وعقله، وقد يستمر معه مدى الحياة على عكس ما قد يتعلمه بالتلقين في قاعة الدرس.

ولتحقيق الأهداف السابقة، يرى الكاتب أنه من الأنسب أن نقدم للطفل مسرحاً من سماته وخصائصه أن يتأسس على بداية ووسط ونهاية، فهذا الترابط والتناسق قد يسهل عملية الاستيعاب والفهم لدى الطفل في مثل هذه المرحلة المتقدمة من عمره. ومن خصائصه أيضاً أن ترتبط أجزاؤه ارتباطاً منطقيّاً وفنيّاً واضحاً، فهذا الوضوح والمنطقية عاملان من عوامل إقناع الطفل بالحدث؛ وبالتالي يمكن استثارة فاعليته وتجاوبه معه. والأهم من هذا كله هو أن يقوم هذا المسرح على أساس شخصية محورية يدور حولها الحدث، وتتآزر الشخصيات الثانوية الأخرى

في الكشف عن ملامح هذه الشخصية المحورية، فمن السهل هنا أن يرتبط الطفل بشخصية واحدة، لاسيما في مرحلة الطفولة المبكرة، أما تعدد الشخصيات وكثرتها واشتراكها في المحورية فقد لا تتناسب إلا مع مرحلة الطفولة المتأخرة إذ يكون الطفل أكثر قدرة على الربط والاستيعاب والاستنتاج وتركيز ملاحظاته.

وفي هذا المقام أيضاً لابد أن نشير إلى أن مسرح الطفل يجب أن يتصف ببساطة اللغة ووضوح المفردات، فكل غموض في هذا الجانب يشوه المسرحية وقد يفسدها؛ لأن المسرحية تكون أكثر جمالاً عندما يكون التعبير عنها بسيطاً ومعبراً ومؤثراً، فبساطة اللغة إذن ووضوح الأفكار وقصر الجمل كفيلة بصياغة مسرحية مليئة بالخبرات العلمية والتربوية، بل وتكون مناسبة للطفل الذي يبقى مهيئاً لاستقبالها، وتجعله على انتباه دائم وتركيز محكم؛ لهذا على المؤلفين أن يهتموا بهذا العنصر في صياغة مسرحياتهم حتى تؤدي أهدافها على الوجه الصحيح.

في الأخير نؤكد على أن كاتب مسرح الطفل هو مربٍّ بالدرجة الأولى؛ لأنه يعمل على إشاعة القيم الأخلاقية والتربوية التي تضبط تصرفات الأطفال وتوجههم التوجيه الإيجابي؛ وبالتالي الارتقاء بهم إلى مستويات أفضل تجعل منهم رجالاً للغد وصناعاً للقرار، ويتطلب هذا بالضرورة من الكاتب المسرحي أن يكون على وعي تام بمناهج التربية والنتائج التي انتهى إليها علم نفس الطفولة وعلم نفس النمو حتى يستطيع إدراك العلاقة بين ما يكتب وبين جمهوره، بل أكثر من ذلك عليه إدراك العلاقة بين ما يكتب وبين المرحلة العمرية التي يخاطبها في عمله، فكاتب أدب الطفل بصفة عامة لا يكتب لجمهور متجانس كما هو الشأن في الأدب العام، وإنما يكتب لمرحلة تنقسم إلى مراحل في النمو النفسي والثقافي والاجتماعي.